غرام لم يتم !...

بقلم : عبد الواحد باشى أعباء العباسي

زعموا ان زهرة تفتحت في جنينة زاهية تقع على نهر عذب سلسبيل يتهادى ماؤه الصافي رويداً رويداً فتستقي منه أزاهير الجنينة الباسمة ومن بينهن تلك الزهرة التي لا تزال في مرح طفولتها البريء !

كانت تلك الامسية التي تحدث بها النسيم الى تلكم الزهرة جميلة هادئة ؛ وكانت الطبيعة الصامتة على حباها الربيع آنذاك فاغدق عليها الحسن والبهاء ، فظهرت في ذلك كابهى ما تكون بين اخواتها الجنائن في هذا الفصل الفاتن ...

الزهرة تلاطف اخواتها ـ الزهور ـ برفق وتضحك معهن فرحة مستبشرة لما عليها من براءة وسذاجة ...!

وكان عهدها بهذا الجو المرح في كل يوم يمر عليها ... حتى أن جاءها اليوم الذي احست فيه اصبحت مسؤلة عن نفسها فنفضت عن اوراقها مرح الطفولة البريء وأخذت تفكر في الاصباح والاماسي بشبابها ومستقبل عمرها !

وفي يوم صباحه مشرق ، هب نسيم بارد فواح بعطر الاماني ... فدار حول الزهرة بلطف ولين ؛ وقد هش باسماً في وجهها الصبوح ، فما كان من الزهرة الا ان اختلجت دقات قلبها وضاقت انفاس عبيرها وانطوت اوراقها الناضرة على نفسها فظلت صامتة حائرة لا تدري ما تصنعه مع هذا النسيم اللطيف ان لاطفها بنعومته ، والى ذلك الجبار ان عابثها بقسوته .

ايه — يا زهرتي — مالي أراك وقد اطرقت برأسك الى الارض ؛ وتجمعت أعضاؤك ، هل خشيت مني فضممت عني جمالك الزاهي ، ام اصابك الخجل فاختفيت عني ؟! ألا تعرفين من اكون انا ...؟ انا ذلك النسيم البارد المنعش الذي اذا هب عليك داعب أوراقك الفاتنة فحمل منك بعض اريجك العاطر الى نفوس العاشقين الواهين ...ألا تعرفيني وانا الذي احمل اليك نداوة الليل فاطلي اوراقك الحمر بندى السحر القاتم !؟

فلم ترد الزهرة عليه بل التزمت الصمت وظلت بحيرتها ساكتة ...

ثم عاد النسيم مناشداً اياها :

ألا تعلمين انا الذي قد حباني الله فاطلق لي العنان وجعلني اغدو واجيء بحرية وبدون قيد ... فلا يستطيع ان يمنعني اي كائن كان كبيراً أم صغيراً من حريتي هذه . . ادخل حتى على

اليوم تنكره الليالي الغابرة ... وتظل ترمقه بعين حائرة
عجباً لأحكام القضاء الجائرة ... فأخفها أمثال ظلم سائرة
وطن يسير إلى الفناء ... بلا رجاء
والداء ليس له دواء ... إلا الاباء
إن الاباء مناعة إن تشتمل ... نفس عليه تمت ، ولما تقهر

واسمعه يخلد شهداء فلسطين في مكان آخر من قصيدته [الشهيد] التي هي صرخة مدوية تحفز الهمم وتثير الشعور بالعزة والاباء حيث يقول :—

انفروا أيها النيام فهذا يوم لا ينفع العيون كراها
كشفت منكم المقاتل وامتدت اليها المثقفات قناها
نبئوني عن القوي متى كان وحيا ؛ هيهات من عز تاها
لا يلين القوي حتى يلاقي مثله عزة وبطشاً وجاها
لا سمت أمة دهتها خطوب أرهقتها ولا يثور قناها

واسمع الفقيد كيف يصب غضبه على عصبة السوء من باعة البلاد :—

يا بائع الأرض لم تحفل بعاقبة ... ولا تعلمت أن الخصم خداع
لقد جنيت على الأحفاد ؛ والهفي ... وهم عبيد وخدام واتباع
وغرك الذهب اللماع تحرزه ... إن السراب كما تدريه لماع
فكر بموتك في أرض نشأت بها ... وأترك لقبرك أرضاً طولها باع

ويقول في مكان آخر :—

أما سماسرة البلاد فعصبة ... عار على أهل البلاد بقاؤها
ابليس أعلن صاغراً إفلاسه ... لما تحقق عنده اغراؤها

إلى غير ذلك من الصور والقطع الرائعة ...

فجدير بكل عربي غيور أن يقرأ [أخي ابراهيم] ليقف على حقيقة ابراهيم .

بغداد — الرستمية

جمال مهدي الرهداوي

على العذارى الفاتنات في خدورهن فلا أجد فيهن خجلا اووجلا

فهل لا زلت تخبينني بعد ان صارحتك بالحقيقة ؟...

تيقني ... إنني لست احبك كما كنت تتأملين ، انا الذي اتطلع الى كل شيء في هذه الدنيا الفسيحة .

أجوب الفيافي والصحاري .

وادخل المدن والأرياف .

وأطوف بالجنائن والحقول .

وأمر فوق البحار والانهار .

وأهب على الغصون والاشجار .

واسبح في فضاء الله الواسع .

فهل يتعذر علي بعد هذا كله ـ يا زهرتي ـ من اريد ان احبه او ان اكرهه ؟!

لا ... فلا تظنين انني احبك ايتها الزهرة الصغيرة فلك مني عطف الاب لابنه .

وهنا رفعت الزهرة رأسها ببطء وتثاقل وقد دب الى نفسها الفشل لا مالها التي ذهبت ادراج الرياح ! لما صب عليها هذا المزهو الجبار كلمات كانت لها الحكم الفاصل بامالها التي ابتنت فيها القصور !

ثم تابع النسيم حديثه قائلا :

ايه ـ يا زهرتي الصغيرة ـ كوني على علم انك لا تزالين بنت اشهر قلائل . اما انا فابن عصور غابرة . فقد خلقت منذ الأزل لابقى مخلداً وسأظل احيا كما كنت من قبل فتى قوياً . أطوف حول العالم بقوتي وسطوتي ، فلست مثلك حيث لا تتمكنين ان تمدي بيدك حتى الى قدك النامي .

فكيف بك ـ اذاً ـ بعد هذا تحبينني وتعشقينني وانا القاسي العنيد ان غضبت وعصفت .

فما كان من الزهرة ـ المسكينة ـ الا ان تصببت اوراقها قطرات من الندى لما أصابها من الخجل الذريع .

فخاطبها النسيم العابر بقوله :ـ

أنت ـ يا زهرتي الجميلة ـ لا تزالين في نضارة عهدك المبكر ، فعيشي في هذا الكون الفسيح عيشة الرفاه والجمال لتكوني فتنة واغراء للمحبين والعاشقين ، يتطلعون في كل صباح ومساء الى وريقاتك النظرة المغرية . ويستنشقون عبيرك الفواح .

ويداعبون اوراقك الحمراء الجذابة باناملهم الناعمة فيسكبون عليك روحاً من الوداعة الطاهرة وأما انا ، فسأكون اليك خير (معين) يحمل عبيرك الشذي الى تلك النفوس المتعطشة التي تحمل في طيات قلوبها ذكريات حبها الماضي فيستعيدون بشذاك الطاهر ذكرياتهم الجميلة فأكون انا بلسماً لجروحهم وأنت أملا لاتمام هنائهم !

أجل سأظل اليك والى خميلتك الساحرة ،

نسيم السحر الذي يسبق نور الفجر الباهت فيوقظك من سباتك العميق ... بلطف ... وحنان !

وسأكون دائما نسيم الأصيل الهادئ اللين ، فاسامرك بهمساتي ... الخفية الساذجة ... !

وسأبقى نسيم الليل الناعس الذي يوسدك صدره ويضم اليه أوراقك في ... رقة ... وأمان ! لتغرقي في أحلامك الهانئة ! ... أجل سأظل لك ، أباً عطوفاً شفوقاً ... وهنا طبع النسيم على ثغرها القاتن قبلة فكانت هي الاولى والاخيرة له معها فهب عنها وذهب ... أخذت الزهرة تفكر ـــ بعدذلك ـــ فقادها التفكير الى الحقيقة الواقعة وهي :

كيف بها احبت هذا الجبار الطاغي وهي الزهرة المسكينة الضعيفة ... اذاً انها كانت على خطأ في هواها هذا وصحيح من قال : الخطأ في متابعة الهوى ... !

* * *

وبينما هي ساهمة في تفكيرها العميق اذ احست ـ وعلى حين غرة ـ ان جسما ناعماً قد داهمها لينضم الى قلبها المرتجف فانتقى منها ورقاتها النضرة ... فبعد ان كانت في لذة من التفكير البعيد اخذت تنتفض خوفاً وترتعد وجلا لذلك .

فقالت مخاطبة ذلكم الغازي :

الزهرة ـــ من تكون أنت يا ترى ؟ فرد عليها وكلامه متقطع وانفاسه تختلج ، ودقات قلبه تسابق الواحدة الاخرى ...

انه « الكروان » ... انه منهزم من السجن الذي سيزج به بدون ذنب أو وزر ... سوى ان مظهره هو الذي ساق الآدمي لسجنه ... ان صياداً آدمياً يلاحقه بشبكته ليصطاده بها فيضعه في قفص ابيض جميل ليضمه الى مجموعة اخوانه الطيور الصغيرة البديعة !!

فردت عليه الزهرة بصوت خافت :

وهل أنت واثق ان ذلك الآدمي يقتفي اثرك الآن بعدان انهزمت منه ؟ .

ـ نعم انه يقتفي اثري ويريد ان يصطادني ...

ـ حسن فما ذا تريد مني اللحظة ؟

ـ أريدان احتمي الى صدرك الحنون فآمن شر السجن المخيف !

ـ ولكن انا ايضاً مثلك جميلة ، ولعل جمالي سيغري يد العمائد بي فيصطادني بانامله ويضعني على صدره القاسي ! لازينه وبهذا ستكون انت كذلك سجين قفص الجميل كما سأكون أنا سجينة صدره اللعين !. .

ـ لا... انه لايعتقدانني ساحتمي اليك وانت زهرة صغيرة !

ـ اذاً لماذا هوآت الآن ليفتش عنك تاركاً كل مكان ومتجهاً نحونا ؟ ...!

ـ لعله يراني فيقتنصني وأنا فوق الشجر المحيط بك

ـ كما يظن هو !. .

فظلت الزهرة تسأله وهو يجيبها حتى انتهيا الى هذا الحديث الممتع

ـ أراك ايتها الزهرة اليانعة ـ في موضع لا يليق بك .

ـ وكيف عرفت ؟

ـ لأن الاشواك والاحراش الصغيرة تحيط بك وانت زهرة جميلة فلم اخترت هذا المحل من تلكم الجنينة التي تنعم بالازاهير النضرة والاوراق العبقة ؟

الزهرة « متنهدة » يا ليتني انا التي استطيع ان اجد المحل اللائق بي ...

ـ اذاً من يكون ذلك القاسي الذي جعل محلك هذا الموضع

ـ انها الطبيعة ـ يا ايها الكروان الجميل ـ نعم ، فانها قد احيتني هنا لاجل ان ازهى على اخواتي الزهور ... بين الاشواك والاحراش الصغيرة !

ـ ها ! انها نعمة عظيمة اغدقتها الطبيعة عليك فارجو اذاً ان لا يكون جمالك جناية عليك فيقتطفك عشاق الزهور والاوراد ويحرمونك الحياة والمتعة وتصبحين في عالم النسيان .

ـ لا أدري ... لعل نهايتي ستكون هكذا ...!

ساد الصمت بينهما برهة ثم تابت الزهرة حديثها الى الكروان

وانت ـ عزيزي ـ اين هو محلك ؟..

محلي ! انه جميل ... ارض منبسطة مخضوضرة ، سماء صافية ؛ طيور ـ مغردة مزغردة ؛ ماء عذب سلسبيل !..

كل شيء ـ عندنا ـ يبعث في الروح المرح والانس ويفرغ في النفوس الحزينة المتعة والسعادة ...

وبالرغم من هـذا كله سأبقى جنبك اقاسمك الهموم وأكون شريكك في الضراء والسراء ...!

فرفرف الكروان بجناحيه بعد ان ايقن ان الآدمي قد ولى الادبار فاشلاً ...

فناجي الزهرة ... هل تسمحين لي بان التم شفتيك المتاعمتين ؛ فلم يجد جواباً لسؤاله ؟! فصب على شفتيها من رضاب ثغره الباسم قبلة حارة ... وصفق بجناحيه الصغيرتين فرحاً وحلق في الجو يصارع النسيم الناعم ...!

فظلت الزهرة في وحدتها شريكة افكارها الطائشة ثم احدقت في السماء واذا بها ترى « الكروان » قادماً وخلفه أسراب من اخوانه الطيور وكأنه قائد طائرة يقود اسراباً من الطائرات ...!

هبطوا جميعهم الى الارض فازالوا كل شوك ورفعوا عن اقبرهم الصغيرة النباتات الصغيرة المؤذية ...

فجاء الكروان الى زهرته التي تفتحت باسمة لتحييه تحية العاشقة لمعشوقها فاستأذنها بان تهديه قبله من فمها الباسم فلم يجد جواباً لذلك ! وما كان منه الا ان طبع قبلة على شفتيها النديتين الحمراويتين ...!

ـ أظن الآن كل شيء فاتن ساحر ـ يا عزيزتي ـ الارض وقد طهرت من الاشواك واقتلع عنها الحسك

والنهر اخذ ماؤه يتسرب الى قدك الرفيع الرشيق ليرويه والنسيم اصبح المجال اليه مفتوحاً ليداعب اوراقك الندية فيغدق عليك روحاً من الآمال والامنيات السعيدة !!

اذاً ـ تعالي ـ يا محبوبتي نبتسم ـ بعد الآن ـ الى هذه الدنيا الغادرة التي كثيراً ما قست على ابنائها الابرياء قسوة مريرة ، فلم ترحم صغيرهم ولا كبيرهم ؛ ضعيفهم ولا قويهم ...

تعالي ؟ لنبرهن الى دهورها الغادرة الفاتكة أننا لا نأبه بقسوتها ولا نخشى غدرها ... وانما نضحك لكل ذلك ولسنا نبتسم

وظل الكروان يهمس بصوت خافت مرتجف الى معشوقته

الجميلة ويصب في اذنها كلمات كلها احساس وعطف وحب ...

نعافي حبهما وسعدا في بحبوحة من العيش الهانيء حتى ارتوت الزهرة وازدهت فاصبحت عروس الزهور المغروسة في تلك الجنينة الضاحكة بازهارها ... كما ان الكروان قد استخفه السرور فاخذ يغني لها الحاناً من الشعر بصوته العذب الحنون وكان يفعل ذلك كلما التقيا في الفجر ، في الصباح ، في المساء ؛ في سكون الليل ... تحت القمر ...!

وكانت ابياته الساحرة التي طالما رددها هي التي سكبها الشاعر علي محمود طه في روعة شعره :

يا شعراء الروض اين البيان ... اين اغاريد الهوى والحنان ؟
قد ولدت في روضكم زهرة ... يا حسنها بين الزهور الحسان؟
حلم الفراشات ، وحب الندى ... وخمرة النحل وسحر الاوان
قد بشر الارض بها مرسل ... مجنح من نسمات الجنان
والنور سبد في ضمير الدجى ... والفجر طيف لم يبن للعيان

أبصرتها تهفو على غصتها ـ في وحشة الليل وصمت المكان بيضاء او حمراء تزهى بها ـ عرائس النرجس والاقحوان تطلى تصغى ؛ وتظل الربى ـ والعشب ؛ والجدول ؛ والشاطئان وليس منكم حولها هاتف ـ موسيقاه سحر البيان ...

* * * *

لقد زادتهم الحياة والنشوة نشاطاً ومرحاً حتى كان الكروان يؤخر كل من يدنو منها ـ من بني البشر ـ فيطير وراءه وينقره بمنقاره من قفاه فيفر هذا منها ؛ ثم يعود الكروان الى محبوبته وهو مرفرف الجناح فرحاً من نشوة الانتصار !

وكان لكل فراق بينها يطبع ـ الكروان ـ على شفتي محبوبته الحمراوين لونا من القبل الناعمة فيرتشف من رحيقها طعما لذيذاً هو أشبه بطعم الشهد ...!

* * *

وفي ذات يوم ـ وبينما ـ كانت الزهرة غارقة في افكارها واوهامها ، اذا حست بيد قاسية تدور حول عودها اللدن وتطوقها بشدة لتقطفها من غصنها الاخضر الزاهي فقالت متوسلة :

بالله دعني اتمتع بالحياة ـ كما تريدين ـ انت ان تتمتعين واشم النسائم العابرة وأسعد بالمحبوب ... ولكن اليد القاسية لم تسمع لكلامها وتوسلاتها بل قطفتها بغير شفقة ولا لين وقدمتها ... الى من ؟ كانت هذه اليد هي يد شاب ظريف اعتاد ان يخرج في كل أمسية الى هذه الجنينة الزاهية هو وعشيقته ينتقلون من خميلة الى اخرى ، وكانا يقتطفان من الزهور ما ابدعها وراق نظرهما حتى ان دفعها الشوق هذه الامسية الى ـ زهرتنا الشقية ـ التي لم تلم بحبها الا أياماً معدودات كانعمت مع محبوبها الاول (النسيم)! قدمها الشاب الى حبيبته كهدية للربيع الباسم فاخذتها منه وهي تبتسم قائلة : ـ شكراً لك انني احبك ! ـ

فبقيا يتبخترات على بسائط الجنينة الخضراء الى ان حان وقت فراقهما الأليم ... فطبع الشاب على شفتي حبيبته قبلة عذبة بعد ان طوقته بين يديها . . فاختل وقوفها فسقطت الزهرة البائسة على الارض وديست بالاقدام فاصبحت في خبر كان ...

عاد الكروان بعد حين فرحاً كعادته ... ولكن ما ذا أصابه من هول حينما رأى ...

زهرته وقد سقطت على الارض وهي مضرجة بدمائها! فحام حولها مرفرفاً بجناحيه ثم طار مسرعاً الى محلها ليستيقن من وجودها فالفاه خالياً منها مقفراً ...

ثم عاد اليها وأخذ يبللها بدموعه الساخنة ويبكيها بلحنه الحزين وصوته الحنون ويردد قول الشاعر الكئيب اليائس فؤاد بليل :

أشجاك انك قد شغفت بوردة ... غذيتها بفؤادك المتقطع
وسقيتها ماء الشئون فاينعت ... بين الورود ، وليتها لم تينع
وتفتحت أكمامها وترعرعت ... في الروضة الغناء اي ترعرع
وكأنما اغترت بفاتن حصنها ... فمضت تتيه به بغير تورع
والحسن كان ولا يزال وسيمه ... شرك القلوب وقبلة المتطلع
وتلاعبت فيها الأكف ودنست ... باصابع شتى وأيد قطع

* * * *

ومالان مضت دقائق معدودات على عزاءه حتى شعر بشبكة غليظة تحيط بجسمه الضعيف الرشيق فرفع رأسه عالياً واذا بالآدمي الصائد يعود الكرة ثم ان الفتى الصائد أمسكه بين أنامله بقوة لكي لا ينهزم وليضعه في قفصه الجميل ...

حتى فاضت روح الكروان المسكينة !

فسبحت مع انفاس الزهرة في عالم اخر هو عالم الخلود والنسيان ...!!!

البصرة : عبد الواحد باشي أعيان العباسي